

هل يغير جون هيتى موازين التربية في العالم؟ **Visible Learning**

نشر البروفيسور جون هيتى (John Hattie)، أستاذ علم التربية في جامعة ملبورن النيوزيلاندية، في عام 2008م ، بحثاً هاماً احتاج إلى 15 عاماً لإنجازه، اعتمد فيه على نتائج 800 تحليل تجمعي لنتائج 50000 دراسة، شارك فيها 250 مليون طالب، حول العناصر التي تجعل الدرس جيداً، والتي حددها في 136 عنصراً مؤثراً، واعتبر خبراء كثيرون أن هذه الدراسة بمثابة زلزال لكل استراتيجيات إصلاح التعليم، ووصف صحيفة تايمز الإنجليزية العالم النيوزيلاندي بأنه «أكثر علماء التربية تأثيراً على مستوى العالم».

الطريف أن هذه الأبحاث التي تعتبر أشمل تحليل للدراسات التربوية على مستوى العالم، والتي شغلت الأوساط التربوية في الدول الناطقة بالإنجليزية منذ عام 2008م، ثم انتقلت إلى مختلف دول أوروبا في السنوات التالية، وظهرت ترجمات كتابه، الذي يحمل عنوانه الأصلي اسم (Visible Learning)، أي ما يمكن تسميته (العملية التعليمية المرئية)، باللغات الأوروبية، وشققت محتويات الكتاب طريقها إلى كليات التربية في الجامعات العالمية، ثم ظهر كتابه الثاني في عام 2011م، وحظي بنفس الاهتمام هناك، إلا أنها لم نجد عنهما شيئاً في العالم العربي بعد، فقررنا أن نفتح باب النقاش حول آرائه بعرض لأهم أفكاره، لعلها تصل إلى غرف المعلمين والمعلمات، فهم المعنين بها في المقام الأول.

هل خطط إصلاح التعليم هراء؟

يقول جون هيتى إنه وجد في بداية عمله في الجامعة الكثير من النظريات والأراء حول كيف يكون الدرس جيداً، وكل واحدة من هذه النظريات ترتكز على دراسات علمية، ولكنها تصل إلى نتائج مختلفة، الأمر الذي أثار شكوكه، فقرر أن يحل كل هذه النتائج، بحيث لا يقتصر الأمر على ما إذا كان هذا العنصر أو ذاك ذات تأثير على جودة الدرس أم لا، بل أي هذه العناصر هو الأكثر تأثيراً لتحقيق ذلك، وشدد على أن المقياس الوحيد الذي اعتمد عليه، هو قدر التقدم الذي يحققه هذا العنصر في تعلم الطلاب، وهو ما يعبر عنه بقوله: «هناك آراء كثيرة، لكن ما يمكن الوثوق به فقط، هو وجود الدليل الذي يمكن إثباته علمياً».

ولعل أكثر ما أثار الانتباه إليه عالمياً، هو أن ما توصلت إليه أبحاثه تتناقض مع كل النقاشات التي يجريها المسؤولون التعليميون في مختلف دول العالم، والتي تركز بالدرجة الأولى على إصلاح الهيكل الخارجي للمدرسة وعلى طرق التدريس، ويقول إن هذه الإصلاحات تقع في نهاية سلم العناصر المؤثرة على نجاح العملية التعليمية.

ويعتبر هيتى أن نتائج هذا الكم الهائل من الدراسات، تسهم في ترتيب هذه العناصر حسب تأثيرها، وت رد على التساؤلات عما إذا كان الاعتماد على الكمبيوتر في العملية التعليمية، ضماناً لتحقيق نتائج أفضل أم لا؟ وينطبق الأمر نفسه على ما تتتباه المدارس التجريبية الحديثة من إلغاء الحدود بين الصفوف المختلفة، وترك الطلاب ليتعلموا بعضهم من بعض، ويعتمدوا على أنفسهم.

ويقول العالم النيوزيلاندي :

1- إن المعلمين لا يستطيعون تغيير مستوى الذكاء عند الطلاب، ولا يقدرون على القضاء على الفوارق الاجتماعية بينهم، وما يعنيه ذلك من اختلاف حظوظهم في الثقافة والاستعداد للمدرسة، لكن ما يقدر عليه المعلمون بالتأكيد هو تغيير طريقة تدريسهم لتحقيق أفضل النتائج.

2- تبعاً للبروفيسور جون هيتى فإن كل العناصر الخارجية، من مناهج متطرفة أو تقليدية، من مدارس حكومية أو خاصة، من صفوف بعده قليل من الطلاب أو صفوف مكتظة بالطلاب، من استخدام للكمبيوتر

والتقنيات الحديثة أو باستخدام السبورة التقليدية، كل هذه العناصر لها تأثير، لكن العنصر الحاسم والذي لا يضاهيه في أهميته أي عنصر آخر، هو المعلم.

3- يدل على ذلك بالتبنيه إلى أننا نجد دوماً نتائج متباعدة رغم اتفاق الظروف المحيطة في كل المدارس، ونجد أن بعض المعلمين يستطيعون تحقيق نتائج أفضل من زملائهم، في ظل الأوضاع نفسها، وبفارق في المستوى العلمي يصل إلى عام دراسي كامل، ويشير إلى أن كل واحد فينا يتذكر طوال حياته معلماً أو اثنين أو ثلاثة فقط، رغم مرور عشرات المعلمين عليه، لكن هؤلاء القلة هم الذين تركوا بصماتهم علينا، لأنهم كانوا معلمين جيدين.

4- إذا كان المعلم، هو أهم عنصر لتحقيق أفضل النتائج في العملية التعليمية، وإذا لم يكن للظروف الخارجية التأثير نفسه، فلماذا تتفق الحكومات الملايين والمليارات من أجل الانتقال من نظام تعليمي إلى نظام تعليمي آخر، وتعتقد أنه سيؤدي إلى نقلة كبيرة في مستوى التعليم فيها؟ لعل الإجابة تكمن في قياس مدى التغير الذي تحقق داخل الصف الدراسي، منذ انتقلت الصالحيات من المركزية في داخل الوزارة إلى الالمركزية وزيادة صالحيات مديرى المدارس، ومنذ تعرفنا على التجارب العلمية الناجحة في كوريا الجنوبية وفي فنلندا، ومنذ ارتفعت ميزانيات التعليم، ومنذ تخلصنا من المباني المستأجرة إلى المباني المملوكة للدولة، ومنذ تغير هذا الوزير وجاء هذا الوزير.

المعلم الجيد:

يحدد البروفيسور هيتي بعضاً من مواصفات المعلم الجيد:

1- إنه هذا المعلم الذي يشعر بالمسؤولية تجاه طلابه، والذي لا يتتردد في اختبار جودة دروسه مرة بعد مرة، ولا يعتقد بأنها مثالية.

2- وهو المعلم الذي لا يبحث عن مبررات خارجية للنتائج السيئة لطلابه، مثل الحديث عن صفوف أكبر مساحة - وهو العنصر رقم 106 من حيث التأثير في قائمة هيتي، وميزانيات أكبر للتعليم، وعدد حصص أكبر، ويشدد على أن ما يحتاجه المعلمون لا يتعلق بالكمية، بل بالكيفية، فإذا رأى المعلم أن الطالب غير قادر على الاستفادة من دروسه، فعليه أن يغير من طريقة التدريس حتى يصل إلى نتائج أفضل.

3- إن المعلم الجيد لا يضيع وقتاً في الأمور غير الهامة، مثل إصرار بعض المعلمين على عدم البدء في الحصة حتى يجلس جميع التلاميذ مثل الأصنام.

4- إن المعلم الناجح هو الذي يدرك تماماً رد الفعل الصحيح على الإزعاج الذي يتسبب فيه أحد الطلاب، وهل يكون رد فعله حازماً، أم ينهي الأمر بمزحة سريعة.

5- المعلم هو الشخص الوحيد الذي يقرر مدى نجاح الحصة أو فشلها، ويستغرب من إصرار الكثير من المعلمين على التقليل من دورهم، والقول إنهم لا يقدرون على تغيير الواقع المحيط، والظروف التي تعرقل أعمالهم، مثل عدم اجتهاد الطلاب وإهمال الأسرة.

6- فيما يتعلق بجانب المشاعر فإنه يشدد على أنه لن تتحقق أي نتائج إيجابية في الدرس بدون الاحترام والتقدير والشعور بالاهتمام وهيمنة مناخ من الثقة المتبادلة في العلاقة بين المعلم وطلابه، وبين المعلم وزملائه.

7- يدعو البروفيسور هيتي المعلم إلى التأكد من وضوح صياغته لأفكاره، بحيث يفهم الطلاب ما يريده منهم، ولا يتهم طلابه بعدم القدرة على فهمه، بسبب قصور فيهم. كما يستغرب العالم التربوي من عدم انتباه الكثيرين من المعلمين إلى أهمية هذا العنصر، بحيث يوزع المعلم الأوراق الكثيرة، ويطرح الأسئلة،

ويشرح الموضوعات، ثم يجد الحصيلة هزلية، ولا ينتبه إلى أنه نسي أن يبدأ حصته بتوسيع الهدف من الدرس، وبشرح المطلوب من الطلاب، فتمر 45 دقيقة، والطلاب يدورون حول أنفسهم، ولا يعرفون أين نقطة البداية وأين نقطة النهاية.

8- يصف هيئي المعلم الجيد بأنه إنسان يجيد ترتيب أفكاره، ويملك حماساً شديداً لمادته، وفضولاً لمعرفة الجديد في تخصصه، فينقل طلابه كل ذلك الحماس، ويقدر على أن يكون في وسط الحدث، وفي محور الحصة، ولا يهم كثيراً أن يكون معلماً من الطراز التقليدي الذي يقف أمام الصف، أم معلماً مؤمناً بالتوجهات الحديثة في التربية، المهم أن يمتلك زمام الأمر في كل لحظة.

9- أن ينطلق دوماً من رؤية الطالب، بأن يسأل المعلم نفسه طوال الوقت: «ماذا لو كنت مكانه؟»، وبعدها يحدد أنساب الطرق في هذا الموقف، لتحقيق أفضل النتائج لعملية التعلم.

10- يشدد على أن المعلم الجيد يرفع سقف التوقعات، ويخلق مناخاً غير معاد للأخطاء، أي أن ينظر إلى أي خطأ يقع فيه الطالب، كفرصة جيدة لترسيخ معلومة، وإلى أن يعيد المعلم تقييم طريقته في الشرح، الذي لم يتمكن من توصيل المعلومة للطالب بحيث يصل إلى الإجابة الصحيحة.

11- يطلب بأن يكون هناك دوماً تعاون متواصل بين المعلمين على تبادل الخبرات.

12- يرفض هيئي مطالب البعض بأن يتراجع دور المعلم في الصف، بحيث يقتصر على إدارة الحوار بين الطالب وتوجيهه دفته، بحيث تتركز العملية التعليمية على الطالب بدرجة شبه كاملة، ويؤكد أنه لم يجد أي دراسات علمية جادة، تثبت أن التقدم في التعلم بهذه الطريقة يكون أفضل من التركيز على المعلم.

13- ينادي بدلاً من ذلك بأن يكون المعلم هو المهيمن على الصف، يتابع كل صغيرة وكبيرة، ويتحمل المسؤولية عن طلابه، ولا يرضى بأن يكون مستواهم متواضعاً، بل يسعى لأن يرتفع بمستواهم جميعاً، وأن يبث فيهم روح التحدي والرغبة في بلوغ القمة، وعدم الاكتفاء بالحد الأدنى فقط، وأن يمنحهم الشعور بالثقة فيهم وفي قدراتهم.

ويضرب على ذلك مثلاً بلعبة الكمبيوتر المعروفة باسم (الطيرور الغاضبة)، والتي تقوم الطيرور فيها بتحطيم الأسوار والمباني، وفي كل مرة يمكن اللاعب من اجتياز مستوى من اللعبة، تزداد التحديات التي يجب عليه التغلب عليها لاجتياز المستوى الأعلى، ويشترط أن تكون هذه الزيادة في الصعوبة قادرة على استفزازه وإثارة روح التحدي في داخله، وهو الأمر الذي يعني أن درجة الصعوبة مرتفعة، بحيث لا يصيب اللاعب الشعور بالملل، وأن يدرك طعم السعادة بعد تجاوز هذه العقبة التي لم تكن هينة.

التغذية الاسترجاعية (Feedback):

أكثر المصطلحات تكراراً في كتابات البروفيسور هيئي، هي كلمة (فيديباك)، التي يستخدمها الكثيرون منا بلغتها الإنجليزية الأصلية، وترجمتها وهي (التغذية الاسترجاعية) :

1- يعتقد العالم النيوزيلندي أن هذه الطريقة من أكثر الوسائل فاعلية لتحسين نجاح العملية التعليمية، إلا أنه يرى أن الكثيرين يواجهون صعوبة كبيرة في القيام بذلك، ويرى أن غالبية المعلمين يخلطون بين (فيديباك) وبين الدرجات.

2- يوضح أن المدح وحده لا يعتبر الطريقة المثلث لمساعدة الطالب على الارتفاع بمستواه، وينصح المعلم بـ لا يركز على النتيجة التي وصل إليها الطالب، بل أن يرجع به إلى نقطة البداية، كيف تعامل الطالب مع المهمة التعليمية المطلوبة منه، وأين أصاب وأين انته杰 طريقة خاطئة، وكيف يتمكن من القيام بمهام أصعب.

3- يشدد هيتي على ضرورة أن يتحدث المعلم مع الطالب بطريقة موضوعية تركز على مضمون الدرس وليس على شخص الطالب، وأن يكتب له تعليقات في دفتره، وعلى خلق مناخ يشجع الطالب على التجربة، والوقوع في الخطأ، دون أن يخاف من أي عواقب سلبية عليه، ويطلب هيتي المعلم في هذه اللحظة، أن يسأل نفسه عن سبب وقوع الطالب في هذا الخطأ، وما إذا كان ذلك يرجع إلى قصور في شرحه، أو استخدامه لطريقة غير مناسبة للطلاب.

4- يطالب البروفيسور النيوزيلندي المعلم بـألا ينطلق من مبدأ أنه بلغ الكمال في الشرح والتحضير، بل أن يسأل نفسه مرة بعد مرة، عما إذا كان قادرًا على تطوير أسلوبه، وتحسين طريقته، وعن جوانب القصور لديه، وبذلك يكون قادرًا على الارتقاء بعمله بصورة مستمرة، ومفتاح هذه المعضلة، هو أن يسعى المعلم ليり ما يقوم به بعيون طلابه، وهذا ما يطلق عليه هيتي اسم (العملية التعليمية المرئية)، أي أن يضع المعلم نفسه مكان طلابه، ويسأل نفسه عما إذا كان قادرًا على الاستفادة من هذا الشرح، أم أنه سيجد صعوبة في فهم هذه النقطة أو تلك.

5- يقول عالم التربية المرموق إن الدراسات الكثيرة التي اطلع على نتائجها، تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن غالبية المعلمين لا يحسنون تقييم المستوى الفعلي لطلابهم، فيشرحون لهم بطريقة تفوق مستوىهم بكثير، أو تكون دون مستوىهم، ولذلك فإنه من الضروري أن تتوفر لهم آلية للتوصل إلى معرفة التأثير الحقيقي لأسلوبهم في التعليم، وتمثل هذه الآلية في النقاشات بين الطالب حول الطريقة التي يتبعونها في حل التمارين، وعندما يكون المعلم قادرًا على أن يسمعهم وهم يفكرون بصوت عال، وبهذا يقيس نتائج عمله بصورة دقيقة.

6- كما يمكن للمعلم أن يلجأ إلى استمرارات استطلاعات رأي، تحتوي على أسئلة عن فهمهم للدرس، واحتمالات الإجابة المختلفة، بحيث لا تأخذ من وقت الحصة أكثر من دقيقتين، تقتصر على وضع علامة أمام الإجابة الصحيحة، يخرج منها المعلم بتقييم أفضل لعمله.

العلاقة بين المعلمين:

1- يشتكي البروفيسور هيتي من سوء فهم الكثير من المعلمين لمصطلح الاستقلالية، فيرفضون العمل مع زملائهم، ولا يقبلون أن يقوم بعضهم بتقييم أعمال بعض، بل يرفضون أي حديث عن ذلك، وقد اتضح من الدراسات الميدانية العديدة حسب البروفيسور هيتي- أن الموضوع المحبب لدى المعلمين هو الطالب وبليه محتوى المناهج، ثم الاختبارات، ثم موضوعات من الحياة العامة مثل كرة القدم وغيرها، أما طريقة التدريس التي يتبعها كل واحد منهم، فإنها غير واردة على الإطلاق تقريباً في أحديثهم.

2- ويشير العالم النيوزيلندي إلى أنه ما من معلم إلا ويعتقد يقيناً أنه يجيد الشرح، حتى ولو كان عجزه ظاهراً للعيان، ويقول إن هذا العجز عن رؤية الوضع الحقيقي، يظهر مثلاً في مسألة أخرى، يراها في المدارس الإنجليزية، التي تتبع ثلاثة أربعها طريقة تقسيم الطلاب إلى مجموعات في كل صف، اعتقداً منها أن أفراد هذه المجموعة قادرون على أن يساعد بعضهم بعضاً، رغم أن الإحصائيات تؤكد أن 2 في المائة فقط من وقت الحصة، يخصص للعمل الجماعي، ومع ذلك لا يفكر أحد في الرجوع عن هذا التقسيم.

3- ويرى هيتي أن الفصور في العملية التعليمية يبدأ من فترة إعداد المعلمين في كليات التربية، على مستوى العالم دون تمييز بينها، والتي يراها أسوأ المؤسسات إعداداً للخريجين، ويرى أنها تتكلف أموالاً طائلة، لكن نتائجها غير مرضية على الإطلاق، ويطلب بدلاً من ذلك بالانتباه إلى السنين أو الثلاث سنوات الأولى من العمل في التدريس، ويرى أنها أهم سنوات في عمر المعلم، ويتحدد على أساسها طريقة عمله في

السنوات الثلاثين القادمة حتى يصل إلى سن المعاش، لأن المعلم الشاب يأتي بحماس شديد ورغبة جامحة في القيام بعمله بصورة أفضل من سبقوه، فإذا وجد المناخ المناسب، قدم كل ما يقدر عليه من جهد، وكان قريباً من طلابه، ومستعداً لتقدير النقد وتصحيح مساره مرة بعد مرة، حتى يصل إلى أفضل الطرق، أما إذا وجد كل من حوله يثبط من عزمه، ويطالبه بأن يسير مع القطيع، ولا يشذ عنهم، وينتقدون حماسه المفرط، فإنه يصبح مثلهم.

4- يرفض هيتي القول إن هناك أشخاصاً ولدوا ليكونوا معلمين موهوبين، ويرى أن وظيفة المعلم قابلة للتعلم مثل كثير من الوظائف، لكن أهم الصفات الشخصية التي يحتاجها المعلم هي المرونة، والقدرة على الاعتراف بالقصور، والافتتاح على ما هو جديد، والاستعداد المستمر للتعلم.

5- عند سؤاله عما كان سيفعله إذا أصبح وزيراً للتعليم، أكد أنه لن يسعى للقيام بأي عمليات إصلاحات هيكلية ضخمة في قطاع التعليم، بل سيسعى إلى تطبيق ما استفاده من نتائج أبحاثه عن الدرس الجيد، وأنه سيعتمد في ذلك على تكوين مجموعات في كل منطقة من أفضل المعلمين بالتعاون مع أكثر مدراء المدارس نجاحاً، ليشرفوا على إطلاع بقية المعلمين على كيفية الارتفاع بعملهم داخل الصنف، دون إضاعة الوقت والجهد والمال في إجراء تعديلات على الإطار الخارجي.

المراجع

Hattie ,John .(2008) Visible Learning :A Synthesis of Over 800 Meta-AnalysesRelating to Achievement .NY :Routledge .P392 .

Hattie .John :Visible Learning for Teachers :Maximizing Impact on Learning2011 ،

• منقول عن مجلة المعرفة (بتصرف)